من مداخل الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(دراسة وصفية تحليلية)

د. حمد محمد عثمان*

الحمد لله الذي أنزل القرآن كتاباً عربياً غير ذي عوج هدى ورحمة للمؤمنين ونوراً وضياءً للسالكين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، المصدق بالقرآن الخالد الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق بكثرة الرد، كتاب منسجم اللفظ والمعنى، فما استطاع العرب أن يأتوا بمثله ولو بآية واحدة، عجزوا وحارت عقولهم، وهم أهل الفصاحة والبيان، بل أقروا بحلاوته وطلاوته وبعدم القدرة على معارضته.

مقدمة

لقد استوقفت معرفة الإعجاز كثيراً من العلماء ردحاً من الزمن وما زالت تشغل أفكارهم لأنها متعلقة بكتاب الله.

ولمعرفة الإعجاز والوقوف عنده لابد من الإلمام بمعارف شتى تنير الطريق لمن يريد الوصول إلى الإعجاز. أقدم بحثاً بعنوان (من مداخل الإعجاز في القرآن الكريم – دراسة وصفية تحليلية).

خطة البحث:

1/ أهمية البحث:

تكمن في فهم فروع اللغة العربية المختلفة للوصول إلى إعجاز القرآن الكريم.

2/ منهج البحث:

طبيعة هذه الدراسة يكون منهجها المنهج الوصفي التحليلي مبيناً وموضحاً ما أخترته من معارف اقتضتها دراسة الإعجاز في القرآن الكريم.

3/ مشكلة البحث:

مادة علمية متنوعة من علوم القرآن والشعر والنثر وما قاله بعض العلماء في الإعجاز.

4/ سبب الاختيار:

معرفة ما يوصل إلى الإعجاز من خلال مواد اللغة العربية التي ألفت لخدمة كتاب الله وتقديمها لمن يريد أن يحوم حول حمى الإعجاز.

* أستاذ مساعد – قسم البلاغة والنقد – كلية اللغة العربية – جامعة أم درمان الإسلامية

الدراسات السابقة كثيرة ومتنوعة خاصة في الكتب التي ألفت من هذه الكتب كتاب الباقلاني والرماني وعبد القاهر والخطاب، وقد قمت بدراسة رسالة للخطاب في الإعجاز، عنوان الدراسة (الإعجاز البلاغي عند الخطابي في رسالته بيان الإعجاز) في مجلة كلية اللغة العربية، العدد السادس، 2012م.

موضوع البحث:

1) تمهيد.
2) معرفة الأسلوب – معرفة النحو – معرفة البلاغة – معرفة التلاؤم – اختيارات من الشعر – الفرق بين الجيد والرديء – معرفة الخيال - التمثيل – الخطب – الأحرف السبعة – مفردات القرآن – من ألف في الإعجاز – الخاتمة – المصادر والمراجع.

تمهيد:

القرآن مشتق من قرأ تأتي بمعنى الجمع والضم. والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، قال تعالى: ﴿عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[1] ومنه قرأه يقرأه ويقرؤه الأخيرة عن الزجاج وقرءاً وقراءة وقرآناً، فهو مقروء ومعنى قرأت القرآن لفظت به مجموعاً أي ألقيته[2].

القرآن آيات منزلة من حول العرش فالأرض بها سماء وهي منها كواكب ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة وتذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسن ترعد من حمى القلوب[3].

أما معاني القرآن منها واضحة البيان وعذوبة ترويك من الماء البيان ورقة تستروح منها نسيم الجنان ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان[4].

القرآن بهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل منقول، وتظافر إيجازه وإعجازه وتظاهرت حقيقته ومجازه وتقارن في الحسن مطالعه ومقاطعه وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، قد أحكم الحكيم صبغته ومبناه وقسم لفظه ومعناه إلى ما ينشط السامع

---

(1) سورة القيامة، الآية 17.

(2) لسان العرب لابن منظور، مادة قرأ.

(3) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص23، دار الكتاب، بيروت – لبنان، 2004م.

(4) انظر المرجع السابق، ص23.

ويقرط المسامع من تجنيس أنيس وتطبيق لبيق وتشبيه نبيه وتقسيم وسيم وتفصيل أصيل تبليغ بليغ تصدير بالحسن جدير وترديد ماله مزيد وله من الصياغة البديعة والصناعة الرفيعة، فالآذان بأقراطه حالية والأذهان من أسماطه غير خالية[1].

الباقلاني في معرض حديثه عنه القرآن نثر الدرر لمن يلتقط منهجاً ولفظاً ورشاقة يقول القرآن تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك في منهج بهيج ونظم أنيق ومعرض رشيق غير معتاص على الأسماع ولا مغلق على الأفهام ولا منكرة في اللفظ ولا مستوحش في المنظر يسرى في القلب كما يسري السرور ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[2]، فهو يشفي الأجساد ويغذي الأرواح وتطمئن به القلوب[3].

الإعجاز:

أما الإعجاز لغة إثبات العجز والعجز هو القصور عن فعل الشيء، والإعجاز مصدر أعجز، يقال عجز فلان عن الأمر، إذا حاوله فلم يستطعه، ولم تتسع إليه مقدرته وجهده، فالإعجاز ضد القدرة، وإذا ثبت الإعجاز وظهرت قدرة المعجز ووضعت المعجزة، والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة[4].

المعجزات التي أبد الله بها المرسلين والأنبياء تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وتكون بحسب القوم الذين أرسل إليهم وهي قسمان:

1. حسية وهي ما تدرك بالحواس، وأغلب المعجزات التي ظهرت للرسل قبل النبي صلى الله عليه وسلم أغلبها حسية.
2. العقلية: وهي ما تدرك بالعقل: وهذه المعجزة العقلية لا يدركها كل الناس لأن الناس يتفاتون في إدراكهم.

والمعجزات التي ظهرت، كانت بحسب قوم الرسول الذي أرسل إليهم.

معجزة إبراهيم جاءت تحدي لقوم يعبدون الأصنام.

---

(1) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، ص20، ج20/1.

(2) سورة فصلت، الآية 42.

(3) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص313.

(4) الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، ج2/ 106، ب. ت.

فحصلت المعجزة لما أرادوا أن يحرقوه انتقاماً لأصنامهم، فأبطل الله خاصية الإحراق في النار، قال تعالى﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[1].

معجزة سيدنا موسى العصا معجزة تفجرت منها المعجزات.

ومعجزة عيسى في يده، قال تعالى﴿ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[2].

أما معجزة النبي صلى الله عليه وسلم جاءت متحدية قوماً اشتهروا بالبلاغة والفصاحة وهي معجزة القرآن الباقية على مر الأزمنة.

يأمرهم بعبادة الواحد الأحد فوصل إلى أعماقهم فحاروا في وصفه فقالوا مرة شعر ومرة سحر مع ذلك اعترفوا به، ولذلك قال قائلهم إن له لحلاوة وإنه عليه لطلاوة.

المدخل إلى الإعجاز والوصول إليه يحتم على السالك لهذا الطريق معرفة أمور من غيرها لا يستطيع أن يصل إلى معرفة الإعجاز في القرآن الكريم، أجملها في الآتي:

- **الأسلوب:**

عرفه عبد القاهر (الضرب من النظم والطريقة فيه) [3] وعرفه ابن خلدون بأنه المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي تفرغ فيه) [4].

فهو عند نُقاد العرب الطريقة الخاصة التي يصوغ فيها الكاتب أفكاره. ويبين بها الكاتب عما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات[5]، الأسلوب يشمل عدة فروع من فروع اللغة العربية من ذلك:

- **المفردات:** وهي تحوي:

الدقة:

(1) سورة الأنبياء، الآية 69.

(2) سورة آل عمران، الآية 49.

(3) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص338، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1984م.

(4) مقدمة ابن خلدون، 543.

(5) انظر أسس النقد، أحمد أحمد بدوي، ص451، د. ت.

والدقة تكون في انتقاء الكلمات التي تعبر عن دواخل الشاعر أو الكاتب وأفضلهم هو الذي تقع عينه على مفردة ظاهرة وواضحة المعالم وهذا الاختيار يحتاج إلى دقة وروية، قيل إن رجلاً أنشد ابن هرمة قوله:

بالله ربك إن دخلت فقل لها ** هذا ابن هرمة قائماً بالباب[1]

فقال له ما هكذا قلت أكنت تصدق؟ قال قاعداً، قال: أكنت أبول قال: فماذا قال واقفاً ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى لعل ابن هرمة يعني من ذلك أن القيام يقتضي الدوام والثبوت بخلاف الوقوف نقول وقف الحجاج بعرفة ولا نقل قام[2].

فإن الأسلوب يوصف باللطافة والرقة والعذوبة كما يوصف بالفخامة والجزالة والخشونة وكل له مقام[3].

الطر افة:

الكلمة الطريفة هي التي لم تمتهن بكثرة الاستعمال فتكون محتفظة بحيويتها ورشاقتها وتكون كلاماً نقياً مهذباً[4].

التكرير:

والتكرار على قسمين أحدهما مذموم وهو ما كان مستغنى عنه فضلة من القول ولغوا وليس من القرآن شيء من هذا النوع.

الثاني التكرار المحمود يحتاج إليه ويحسن استعمال في الأمور المهمة التي تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستعانة بقدرها[5].

من التكرار المحمود ما ذكر فيه مقام التعظيم والتهويل قوله تعالى:﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾[6].

وقوله تعالى:﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾[7].

وكقول الشاعر:

---

(1) الصناعتين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، تحقيق مفيد قميحة، ص83، ط 1984م.

(2) خصائص التراكيب، محمد محمد أبو موسى، ص72، ط مكتبة وهبة، 2000م.

(3) تقريب مناهج البلغاء، حازم القرطاجني، ص202، مكتبة وهبة، القاهرة، 2006م.

(4) أسس النقد، أحمد أحمد بدوي، 461، د. ت.

(5) انظر بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث وسائل حمد محمد إبراهيم الخطابي، دار المعارف، تحقيق محمد زغلول ومحمد خلف الله، د. ت، ص52.

(6) سورة الحاقة، الآيتان، 1-2.

(7) سورة القارعة، الآيتان، 1-2.

هلا سألت جموع كندة، يوم ** ولو أين أينا[1]

معرفة النحو:

لا غنى لأي باحث عن الإعجاز من معرفة النحو، وهو الذي يوصلك إلى المعنى وإلى نظم الكلام صياغة وشكلاً ورونقاً ، وركز عليه عبد القاهر في معرض نظرية النظم وجعله أساساً ينبني عليه، ومن غيره لا يصل الباحث إلى المعرفة المنشودة.

يقول عبد القاهر: (إذا كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها.

وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحان حتى يعرض عليه والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، ولا ينكر ذلك إلا من نكر حسه وإلا من غالط في الحقائق نفسه وإذا كان الأمر كذلك فليت شعري ما عذر من تهاون به زهد فيه ولم ير أن يستقيه من مصبه ويأخذ من معدنه ورضي لنفسه بالنقص والكمال، وتحقيق الغبينة وهو يجد إلى الربح سبيلاً[2].

معرفة البلاغة:

منها أن تكون العبارة سهلة سلسة وثيقة بعيدة عن الثقل في النطق استدلوا عن الثقل بقول الشاعر:

وقبـــــرحـــــرب بمكـــــان قفـــــر ** ولـــــيس قـــــرب قبـــــر حربـــــه قبـــــر[3]

الوضوح:

أن يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى، وذلك شرط أساس الكلام البليغ المؤثر، لأنه يصل إلى القلب في سرعة وسهولة ويكون الكلام واضحاً إذا رُكِب تركيباً حسب قواعد اللغة، ولم يشتد اتصال بعضه ببعض اشتداداً وثيقاً ولم يطل الفصل بين أركان جمله وإن فُقِد شرط من ذلك خفي المعنى، ولم يتضح المراد بالكلام، واتسمت العبارة بالتعقيد والمعاظلة[4].

---

(1) الصناعتين، أبو هلال العسكري الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981م.

(2) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص42.

(3) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص60.

(4) انظر أسس النقد، أحمد أحمد بدوي، ص472.

قديماً اثنى عمر بن الخطاب على زهير بأنه كان لا يعاظل بين الكلام[1].

القوة:

من القوة استخدام الكلمات الجزلة في مكانها والسهلة في مكانتها من ذلك قول الشاعر:

بكـــرا صـــاحبي قبـــل الهجيـــر ** إن ذاك النجـــاح مـــن التبكيـــر[2]

انظر إلى كلمة الهجير هي كلمة طريفة مثقفة ولو أننا استبدلناها بكلمة الظهر لما كان في البيت قوة كما تعود إلى استخدام (إن) لأن الجملة واقعة جواباً لسؤال فهم من الجملة الأولى ولو أنه قال مكانها بكراً فالنجاح لم يعد الأسلوب قوياً[3].

هذا يقودك إلى معرفة أسرار الجملة وأسرار الجملة يقودك إلى أسرار الإعجاز وهذا ما نريد أن نصل إليه.

معرفة التلاؤم بين اللفظ والمعنى:

المعنى الكريم يلتمس له لفظ كريم[4].

ولاحظ النقاد أن المدح له ألفاظ خاصة به كذلك الهجاء وللجد ألفاظ وللهزل ألفاظ[5].

نجد التلاؤم بين اللفظ والمعنى عند الموهبين من الشعراء وأن قوة اللفظ تدل على قوة المعنى، نبه على ذلك أبو الفتح ابن جني في كتابه الخصائص[6].

فإذا زيد في الألفاظ وجبت زيادة المعاني وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة، فمن ذلك قولهم (خشن) و(اخشوشن) فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرار العين وزيادة الواو[7].

---

(1) جمهرة أشعار العرب، ص68.

(2) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ص37.

(3) أسس النقد، أحمد أحمد بدوي، 475.

(4) العمدة أبو علي الحسن بن رشق القيرواني 142/1.

(5) انظر أسس النقد، أحمد أحمد بدوي، 477.

(6) راجع الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، دار الهدى، بيروت، تحقيق محمد علي النجار، ج1، د. ت، ص217.

(7) انظر أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود الزمخشري، مادة خشن.

كذلك (عشب) (اعشوشب)[1].

ولذلك ورد في قوله تعالى:﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾[2] (غفارا) أبلغ من (غافر) وكذلك قوله تعالى﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾[3](كبكبوا) أشد من معنى (كب) أي قلب.

والشعراء يختلفون في اختيار الألفاظ منهم جيد ومنهم من يتوسط ومنهم دون ذلك. والذي جاد لفظه ومعناه كقول النابغة الذبياني:

كلبنى لهم يا أميمة ناصب ** وليل أقاسيه بطيء

الكواكب[4].

والذي جاد لفظه وتأخر معناه كقول جرير:

إن الـــذين غـــدوا بلبـــك غـــادروا ** وشـــــــلاً لا يـــــــزال معينـــــــا

غيضـــن مـــن عبـــراتهن وقلـــن لـــي ** مـــاذا لقيـــت مـــن الهـــوى ولقينـــا[5]

والذي جاد معناه وتأخر لفظه كقول لبيد:

مـــا عاتـــب المـــرء الكـــريم كنفســـه ** والمـــرء بصـــلحه الجلـــيس الصـــالح[6]

وهناك ما تأخر لفظه ومعناه كقول الأعشى:

وقـــد غـــدوت إلى الحـــانوت يتبعني ** شـــاوٍ مشـــل شـــلول شلشـــل شـــول[7]

معرفة الشعر:

من العلماء من يقسم الشعر على أساس فني ومنهم يقسم على أساس خلق ودين فقد روى صاحب العمدة أن بعض النقاد جعل الشعر أصنافاً فشعر هو خير كله ذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل القائل على تمثل به الخير وما أشبه ذلك، وشعر هو ظرف كله وذلك القول في الأوصاف والنعوت والتشبيه وما يتفنن من المعاني والأدب وشعر هو

---

(1) المرجع السابق، مادة عشب.

(2) سورة نوح، الآية 10.

(3) سورة الشعراء، الآية 94.

(4) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، 93، دار الكتب العلمية، د. ت.

(5) كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، ص147، ج7، د. ت.

(6) الشعراء والشعراء، ابن محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م، ص68.

(7) ديوان الأعشى، 132، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1917م.

شر كله وذلك هو الهجاء، وتسرع به الشاعر إلى أعراض الناس وشعر يتكسب به وذلك ما يحمل إلى كل سوق ما يتعلق فيها[1].

فالذي يريد معرفة الإعجاز ينبغي عليه أن يقف على جميع الفنون الشعرية بأنواعها لأن القصد من ذلك الألفاظ والمعاني التي حوتها هذه الفنون الشعرية كما يفعل ابن عباس ويحض على معرفة الشعر لأن الشعر ديوان العرب والقرآن نزل بلغة العرب، ولغة العرب في الشعر لأنه وصل إلينا كله إلا عشره، وسأقف بك على بعض النماذج الشعرية لعلها تفيدنا:

قال لبيد مادحاً ومفتخراً بنسبه وقومه:

وجـــزو أيســـاردعوتـــه لحتفهـــا ** بمغـــــالق متشـــــابه أجســـــامها

أدعـــو بهـــن لعـــاقر أو مطفـــل ** بـــذلت لجيـــران الجميـــع لحامهـــا

فالضـــيف والجـــار الحنيـــب كأنمـــا ** هبطـــا تبالـــة مخضـــباً أهضـــامها

تـــأوي إلـــى الأطنـــاب كـــل رذيـــة ** مثـــل البليـــة قالصـــاً أهـــدامها

ويكللـــون إذا الريـــاح تناوحـــت ** خلجـــاً تمـــد شـــوارعاً أينامهـــا[2]

نموذج النابغة الجعدي:

خليلـــي عوجـــا ســـاعة وتهجـــرا ** ولـــو مـــا علـــي مـــا أحـــدث الـــدهر أو ذرا

ولا تجزعـــا إن الحيـــاة قصـــيرة ** فخفـــا لروعـــات الحـــوادث أو قـــرا

وإن جـــاء أمـــر لا تطيقـــان دفعـــه ** فـــلا تجزعـــا ممـــا قضـــى الله واصـــبرا

ألـــم تربـــا أن الملامـــة نفعهـــا ** قليـــل إذا مـــا الشـــيء ولـــى وأدبـــرا

تهـــيج البكـــاء والندامـــة ثـــم لا ** تغيـــر شـــيئاً غيـــر مـــا كـــان قـــدرا

أتيـــت رســـول الله إذ قـــام بالهـــدى ** ويتلـــو كتابـــاً كـــالمجرة نيـــرا[3]

صياغة محكمة حذف حرف النداء في أول البيت أفضل من إثباته نهي وتوكيد وأدواته الجزم والظرف والجملة الاسمية في مكانها والفعلية وصورة في آخر بيت مستمرة ومعبرة بين الهداية المعنوية والهداية المادية تشبيه في غاية الروعة والجمال يجمع بين المشبه والمشبه به الهداية في كلٍ.

قال زهير:

---

(1) العمدة، ابن رشيق، ص76.

(2) جمهرة أشعار العرب أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، حققه علي محمد البجاوي، د. ت، ص266.

(3) جمهرة أشعار العرب، القرشي، ص 618-619.

ومـــن لا يصـــانع فـــي أمـــور كثيـــرة ** يضـــرس بأنيـــاب ويوطـــأ بمنســـم
ومـن يجعـل المعـروف مـن دون عرضـه ** بفـــره ومـــن لا يتـــق الشـــتم يشـــتم
ومـــن يـــك ذا فضـــل فيبخـــل بفضـــله ** علـــى قومـــه يســـتغن عنـــه ويـــذمم[1]

انظر هذه أبيات قيلت في قمة البلاغة والفصاحة قبيل نزول القرآن الكريم، انظر إلى سبكها وصياغتها ورونقها ومعانيها المتدفقة عذوبة وإشراقاً، والتناسب والتلاؤم والجزالة والانسجام التام بينها، لعل عمر بن الخطاب عندما أوصى ابنه عبدالرحمن يقصد هذا الشعر (يا بني صل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك فإنه من لم يصل رحمه ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤدب حقاً ولم يغترف أدباً[2].

قال الأعشى:

عنتـــريس، تعـــدوا إذا مســـها الســـو ** ط كعـــدو المصلصـــل الجـــوال
لاحـــه الصـــيف والخيـــال وإشـــفا ** ق علـــى صـــعدة كقـــوس الضـــال
ملمـــع لاعـــة الفـــؤاد إلـــى جحـــ ** ش، فـــلا عنهـــا فبـــئس الغـــالي
ذو أذاة علـــى الخلـــيط، خبيـــث الـــ ** نفـــس، يرمـــي مراغـــه بالنســـال
غـــادر الجحـــش فـــي الغبـــار، وعـــدا ** هـــا حثيثـــاً لصـــورة الأدحـــال

هذه صورة مليئة حياة وحبوبة، شبه الناقة في عدوها السريع القوي الشرس دي الصرامة الحمى والاندفاع، والمشبه هو هذا الحمار لهذه القصة ويلاحظ أن أموراً ثلاثة أضمرت هذا الحمار في الصيف يعني الجدب وسوء الرعي والمطاردة والإشفاق على أتان وهذه الأتان التي همه أمرها حتى أضمره ولأنه هو الذي أشقاها حين عزل ولدها وقطعها عنه ودفعها دفعاً غليظاً قاسياً التي تخلفها وراءها، وقد اهتم الأعشى اهتماماً ظاهراً برجم هذا الحمار والقيم الراعي بجملة صفات مفصلاً ومفرعاً[4].

نموذج آخر من الرثاء من امرأة اشتهر شعرها به من ذلك قصيدتها التي مطلعها:

---

(1) ديوان زهير، المكتبة الثقافية، بيروت – لبنان، 1968، ص31.

(2) جمهرة أشعار العرب، القرشي، ص 41.

(3) ديوان الأعشى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ص140.

(4) دراسة في البلاغة والشعر، أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1991، ص141-142.

فـــذي بعينـــك أم بـــالعين عـــوار ** أم زرفـت إذ خلـت مـن أهلهـا الـدار
كـــأن عينـــي لـــذكراه إذا خطـــرت ** فـيض يسـيل علـى الخـدين مـدرار
تبكي لصخر هي العبرى وقد ولهت ** ودونـه مـن جديـد التـرب أسـتار

كثرت التوكيدات في هذه الأبيات واختيار الألفاظ والمعاني وما يجمع بينهما من سبك وصياغة وتتناسب وانسجام.

يوحي إليك أن هذه الأبيات من أفضل ما قيلت في الرثاء كيف لا وإن قائلتها نذرت حياتها لهذا الفن من الفنون واشتهرت به واختصت به.

نموذج من شاعر قيل فيه لولاه لضاع ثلث اللغة العربية ألا وهو الفرزدق:

عزفـت بأعشـاش ومـا كـدت تعـزف ** و أنكـرت مـن حـدراء مـا كنـت تعـرف
ولـج بـك الهجـران حتـى كأنمـا ** تـرى المـوت في البيـت الـذي كنـت تـألف
لجاجـة صـرم لـيس بالوصـل إنمـا ** أخـو الوصـل مـن يـدنو ومـن يتلطـف
ومســـتنفرات للقلـــوب كأنهـــا ** مهـــا حـــول منتوجاتـــه يتصـــرف
تـراهن مـن فـرط الحيـاة كأنهـا ** مـراض سـلال أو هوالـك نـزّف
ويبـذلن بعـد اليـأس مـن غيـر ريبـة ** أحاديـث تشـفي المـدنفين وتشـغف
إذا هـن سـاقطن الحـديث حسـبته ** جنـى النحـل أو أبكـار كـرم يقطـف
مو انـــع للأســـرار إلا لأهلهـــا ** ويحلفـن مـا ظـن الغيـور المشقشـف[2]

انظر لهذه الأبيات التي تمتاز بالجزالة والمتانة وقوة العبارة ورونق اللفظ وصياغة المعنى، لذلك اختاره أهل اللغة مستدلين بما يقول، فمن أراد الإعجاز لابد له أن يستصحب شعر الفرزدق والسابقين له.

معرفة الرديء من الشعر:

عيب على جرير قوله:

هـذا ابـن عمي في دمشـق خليفـة ** لـو شـئت سـاقكم لـي فطينـا[3]

(1) ديوان الخنساء، المكتبة الثقافية، بيروت – لبنان، ص42-43-44.

(2) جمهرة أشعار العرب، القرشي، ص694-695.

(3) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص309.

قال عبدالملك جعلتني شرطياً أما لو قلت لو شاء ساقكم إلى قطينا لسقتهم إليك عن آخرهم[1].

وعيب على أبي تمام لفظاً استخدم في الذم:

مـا زال يهـذي بالمكـارم دائبـاً ** حتى ظننـا أنـه محمـوم[2]

وكلمتا يهذي ومحموم يستعملان في الذم وليس المدح.

وكقول أبي نواس:

جاد بالأموال حتى ** حسبوه الناس حمقا[3]

كلمة حمقى من ألفاظ الهجاء ليست مستساقة في المدح.

بمعرفة هذا تدرك أن الله أحاط بالألفاظ والمعاني والبشر لم يحظ بلفظ ولا معنى.

معرفة الخيال:

الخيال له تأثير كبير في النفس أشد من الحقيقة وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع، يقول العرب في المتحير أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فأنت بذلك جلب له صورة تردده وتحيره فهي أبلغ من الظاهر أنت متردد في أمرك.

قال أبو تمام:

بصـرت بالراحـة العظمى فلـم ترهـا ** تنـال إلا علـى جسـر مـن التعـب[4]

انظر لهذه الصورة التي تحمل فكرة أفضل وأجمل من قولك لا تسأل الراحة إلا بعد الكد والتعب.

ومن قولهم في الخيال:

فـالأرض ياقوتـة والجـو لؤلـؤة ** والنبـت فيـروزوالمـاء بلـور[5]

جمال الخيال في هذا التشبيه الرائع وهو من أعلى أنواع التشبيه وهو التشبيه البليغ.

ومن الخيال قول عنترة:

([1]) عيار الشعر، ابن طباطبا، د. ت، ص 92.

([2]) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، د. ت، ص 154.

([3]) انظر العمدة، ابن رشيق ، ص 178.

([4]) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص75.

([5]) ديوان الصنوبري، أبو طالب المأمون، د. ت، ص595.

فشـــككت بـــالرمح الأصـــم ثيابـــه ** لـــيس الكـــريم علـى القنـــا بمحـــرم[1]

فهذا البيت يتمثل لنا الخيال في المجاز عبّر بالثياب عن الصدر فهذه مجاورة.

معرفة ما يتمثل به:

قال صاحب الصناعتين (والطريق المسلوك والمنهج القاصد في التمثيل عند القدماء والمحدثين تشبيه الجواد بالبحر والمطر والشجاع بالأسد والحسن بالشمس والقمر، والسهم الماضي بالسيف والعالي الرتب بالنجم والحليم الرزين بالجبل والقاسي بالحديد والصخر والبليد بالجماد واللئيم بالكلب[2].

ومن مداخل الإعجاز:

معرفة النثر ومن أفضل ذلك الخطب في الجاهلية والإسلام خاصة خطب النبي صلى الله عليه وسلم.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحمل سلامة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معانٍ وقلة تكلف وأوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها من منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ومن تأمل حديثه ويسره على ذلك[3].

انظر إلى حطب الرسول صلى الله عليه وسلم وهي أول خطبة خطبها كما جاء في سيرة ابن هشام أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له ثم قال: أما بعد (أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك، فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته) [4].

---

(1) شرح المعلقات السبع، الزوزني، ص259.

(2) الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص265.

(3) السيرة النبوية من مفهوم القاضي عياض، ص211، د. أحمد جمال المصري.

(4) انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص63، د. محمد فهمي السرحان.

انظر إلى جمال هذا الأسلوب مع قلة عدد الحروف وكثرة المعاني وبعداً عن الضعة وترفعاً عن التكلف.

كما قال الجاحظ (هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثرة عدد معانيه وجل عن الضعة ونزه عن التكلف وكان كما قال الله تعالى﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[1].

وكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التعقيب أي التقصير واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي فلم ينطق إلا عن ميزات حكمه ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق[2].

من حديثه صلى الله عليه وسلم الذي يشتمل على قلة الحروف وكثرة المعاني قوله: (المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم بد على من سواهم) [3].

فهذا هو الإيجاز المطلوب والممدوح كيف لا وهو أفضل من نطق بالضاد وهو أفصح العرب صلى الله عليه وسلم.

الأحرف السبعة:

هنالك اختلاف في الأحرف السبع:

1. حدها أنه من المشكل الذي لا يدري معناه لأن العرب تسمى الكلمة المنظومة حرفاً، وتسمى القصيدة بأسرها كلمة والحرف يقع على المقطوع من الحروف المعجمة والحرف أيضاً المعنى والجهة.
2. وهو أضعفها أن المراد سبع قراءات﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾[4]وأطهرَ بفتحها.
3. سبعة أنواع كل نوع منها جزء من أجزاء القرآن بخلاف غيره من أنحاءه، فبعضها أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال وغيره.
4. إن المراد سبع لغات لسبع قبائل من العرب[5].

وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه هذا ما لم يسمع قط أي نزل على سبع لغات متفرقة في القرآن فبعضه نزل بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة تميم

(1) سورة ص، الآية 86.

(2) انظر البيان والتبين، الجاحظ، ص27، تحقيق عبدالسلام هارون.

(3) الحديث سنن ابن ماجة، ص151، ج2، د. ت.

(4) سورة هود، الآية 78.

(5) الرهان في علوم القرآن، الزركشي، 2/154-155.

وبعضها بلغة أزد وربيعة وبعضه بلغة هوازن وسعد بن بكر ولذلك سائر اللغات ومعانيها في هذه كله لكلمة واحدة وقال بعض العلماء أنه المختار[1].

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع)[2].

أشار أفصح العرب بظهر كل حرف وبطنه وحده ومطلع كل حد إلى حقيقة هذا هو الإعجاز فإن ظاهر القرآن على أي لغة قرئ بها من لغات العرب إنما هو ظاهر تلك اللغة بعينها، ولكن باطنه صورة السماء من الماء ومسميات إلهية لا تنال، وإن نيلت الأسماء ثم أن لكل لغة امتزاجها بالقرآن حداً يقف عنده أهلها وهو الذي يبتدئ من الجنسية اللغوية. ولكل حد من هذه الحدود مطلع يصدر منه إلى مرتقى هذه الجنسية التي كان القرآن أخص مقوماتها وذلك في جملته إنما هو الإعجاز كله، والهدى كله، والكمال كله[3].

مفردات القرآن

من المدخل إلى إعجاز القرآن معرفة مفرداته فهماً وتأويلاً، والعلماء يختلفون في فهم ذلك قال الرافعي: في القرآن ألفاظ اصطلح العلماء تسميتها بالغريب وليس المراد بغربتها أنها منكرة أو سافرة أو شاذة فإن القرآن منزه عن هذا جميعه وإنما اللفظة العربية ههنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل؛ بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس. وجملة ما عدوه من ذلك في القرآن كله: سبعمائة لفظ أو تزيد قليلاً.

كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول: الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا حرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه[4].

ومنشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم والكفر والإيمان ونحوها مما نقل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية المحدثة أو يكون سياق الألفاظ قد دل

---

(1) البرهان، الزركشي، 155/2.

(2) الحديث صحيح، ابن حيان، ص75، د. ت.

(3) إعجاز القرآن، الرافعي، 51-52.

(4) إعجاز القرآن، الرافعي، ص53.

بالقرينة على معنى معين غير الذي يفهم من ذات الألفاظ كقوله تعالى:﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾[1] أي فإذا بيناه فاعمل به[2].

ومن الألفاظ التي ينبغي أن تعرف لدى الباحث عن الإعجاز ما يسميه أهل اللغة بالوجوه والنظائر فهي الألفاظ التي وردت فيها معاني مختلفة كلفظ الهدى فإن فيه على سبعة عشر وجوهاً بمعنى الثبات والدين والدعاء ونحوها ومن هذه الألفاظ الصلاة، الرحمة والسوء والفتنة والروح وغيرها[3].

وأما الإفراد فهي ألفاظ تجيء بمعنى مفرد وغير المعنى استعمل فيه عادةً قال ابن فارس في كتاب الإفراد كل ما في القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن إلا﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾[4] فمعناه أغضبونا وكل ما فيه من ذكر البروج الكواكب إلا﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[5] فهي القصور الطوال الحصينة وكل ما فيه من ذكر البر والبحر، فالمراد بالبحر الماء والبر التراب اليابس إلا﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[6] فالمراد به البرية والعمران[7].

معرفة من ألف في الإعجاز يقود إلى الإعجاز وحقيقته ومن ذلك كتاب إعجاز القرآن لأبي عبدالله محمد بن زيد الواسطي المتوفى سنة 306هـ وهو كتاب شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحاً كبيراً سماه (المعتضد) وشرحاً آخر أصغر ثم وضع أبو عيسى الروماني المتوفى 383هـ كتابه في الإعجاز فرفع بذلك درجة ثالثة، وجاء القاضي أبوبكر الباقلاني المتوفى سنة 403هـ، فوضع كتابه المشهور إعجاز القرآن وكذلك الإمام الخطابي المتوفى سنة 388 وفخر الدين الرازي سنة 606هـ.

(1) سورة القيامة، الآية 18.
(2) الإعجاز، الرافعي، 18.
(3) الاتقان، السيوطي، 143/1.
(4) سورة الزخرف، الآية 55.
(5) سورة النساء، الآية 78.
(6) سورة الروم، الآية 41.
(7) انظر الاتقان، السيوطي، 143/1.

وابن أبي الأصبع المتوفى سنة 654هـ والزملكاني المتوفى سنة 727هـ وهي كتب بعضها من بعض[1].

الإعجاز البلاغي عن الخطابي:

مفهوم الإعجاز القرآني أحمد جمال العمري.

ونقف بك على أهم كتاب هو إعجاز القرآن للباقلاني وهو الذي وضع خطة واضحة لمن أراد أن يصل معرفة الإعجاز ووضع لذلك أسساً علمية يسير عليها الباحث في الإعجاز ومنها:

1. معرفة اللغة العربية معرفة تامة وإدراك خصائصها وسماتها.
2. معرفة وجوه البلاغة العربية بكل علومها وأصولها وفروعها.
3. الاطلاع على النماذج الفذة مما أثر عن العرب شعراء وخطباء حتى يعرف المكانة الحقيقية لبلاغة القرآن وجمال نظمه[2].

وقد أوضحنا ذلك وبيناه فيما مضى من نقاط حددناها إعانة لمن يريد معرفة الإعجاز والوقوف عنده.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيد السادات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قد حاولت من خلال ما قمت به وصفاً وتحليلاً لمداخل الإعجاز وقوفاً على بعض المعارف التي تنير الطريق لمن يريد أن يصل إلى إعجاز القرآن الكريم لأنه هو الغاية المنشودة، فجاءت النتائج والتوصيات كالآتي:

1. تمعن ألفاظ القرآن ومعناه وصيغته ومبناه.
2. معرفة ضروب الأسلوب رقة ولطافة وفخامة وجزالة وخشونة.
3. الوقوف عند التكرار المحمود الذي يشمل مقام التعظيم والتهويل.
4. إدراك معنى النحو نظماً ودقة وطرافة ووضوحاً.
5. يبين أسرار الحروف من خلال البلاغة لأن لكل حرف معنى.
6. ممارسة الشعر الجيد خاصة الشعر الجاهلي الذي قيل قبيل نزول القرآن الكريم.

---

(1) الإعجاز القرآني، الرافعي، ص108.

(2) انظر إعجاز القرآن، الباقلاني، ص144، محمد بن الطيب بن محمد أبوبكر القاضي الباقلاني.

7. النثر مادة علمية معرفية من خلالها تقترب من الإعجاز خاصة خطب النبي صلى الله عليه وسلم.

التوصيات:

1. دراسة الشعر خاصة المعلقات والملحمات والمذهبات والمشوبات.
2. دراسة كُتب من كَتب في الإعجاز من ذلك الباقلاني والرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني والرافعي.

المصادروالمراجع:

- **القرآن الكريم.**
1. الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي.
2. أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري.
3. أسس النقد، أحمد أحمد بدوي.
4. إعجاز القرآن، الباقلاني، محمد بن الطيب بن محمد أبوبكر القاضي الباقلاني.
5. الإعجاز، الرافعي، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب، بيروت – لبنان، 2004م.
6. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي.
7. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب.
8. بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث وسائل، حمد محمد إبراهيم الخطابي.
9. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون.
10. تقريب مناهج البلغاء، حازم القرطاجني، مكتبة وهبة، القاهرة، 2006م.
11. جمهرة أشعار العرب، أبي يزيد محمد بن أبي الخطاب القرشي.
12. الحديث الصحيح، ابن حيان، د. ت.
13. الحديث، سنن ابن ماجة، د. ت.
14. خصائص التراكيب، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، 2000م.
15. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت - لبنان.
16. دراسة في البلاغة والشعر، أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، 1991م.
17. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني.
18. ديوان الأعشى، دار العلمية، بيروت – لبنان، 1987م.
19. ديوان الخنساء، المكتبة الثقافية، بيروت – لبنان.
20. ديوان الصنوبري.
21. ديوان زهير، المكتبة الثقافية، بيروت – لبنان، 1968م.
22. السيرة النبوية من مفهوم القاضي عياض، د. أحمد جمال المصري.

23. السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق محمد فهمي السرحان.
24. شرح المعلقات السبع، للزوزني.
25. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت.
26. الصناعتين، أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
27. العمدة، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني.
28. عيار الشعر، لابن طباطبا، د. ت.
29. كتاب المنتظر في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي.
30. لسان العرب لابن منظور.
31. مقدمة ابن خلدون، د. ت.